كونفشيوس

من العجيب أنه لا يخلو كتاب فى تاريخ الأديان من فصل هام عن مذهب كونفشيوس حكيم الصين الأشهر وتعاليمه . وإن أقيمت الحجة فى الوقت ذاته على أن الكونفشيوسية ليست دينا وإنما هى منهج خلقى أو أسلوب من أساليب الحياة.

بل إن الذين يقولون إن الكونفشيوسية الحديثة هى دين من الأديان يصرّون أيضاً على القول بأن التعاليم الأصلية لكونفشيوس لم تكن بأى حال من الدين فى شىء .

والواقع أن الكونفشيوسية هى الآن وفى كل وقت من الأوقات دين من الأديان . فقد كان كونفشيوس ذاته رجل دين تمثّلت فيه جميع العقائد الصينية القديمة . وكان أتباعه ومريدوه رجال دين بكل معانى هذه الكلمة ، بل إن الكونفشيوسية كلما تقدم بها الزمن أمعنت فى الدين . ومهما يكن من الأمر فإن الكونفشيوسية — سواء أكانت فلسفة أم مذهباً خلقياً أم ديناً — فإنها قد أدّت جميع الوظائف التى يرجى أن يؤديها دين من الأديان .

وإذا كان بعض الناس لا يرون أن الكونفشيوسية دين فمرد ذلك ضيق نظرتهم إلى الدين . والمعنى المقصود من هذه الكلمة . فهم يقيسون كل دين على دينهم الخاص ، فإذا كان مماثلا فى جوهره لدينهم فهو فى نظرهم دين صحيح وإلا كان شيئاً آخر بعيداً عن الدين .

والواقع أن كونفشيوس قد تجاهل فى تعاليمه أشياء كثيرة من التى ينظر الناس إليها عادة على أنها من أسس الدين ومظاهره الرئيسية ، ولم يكن ذلك منه استخفافاً بهذه المظاهر الدينية ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين فى شىء . فهو مثلا لم يذكر فى تعاليمه أى نوع من أنواع العبادة أى الصلاة المعروفة فى الأديان المنزلة ، ولم يرد فى أحاديثه وتعاليمه ما يدل على ضرورة إقامة أماكن خاصة للعبادة ، يؤمها الناس فى أوقات معلومة للصلاة أو للابتهال والتوسل للكائن الأعلى الذى يعتقدون فيه .

الإنسانى الأول

إن الدين الذى جاء به كونفشيوس وعمل على نشره وتطبيقه بين أمة الصين وثيق الصلة بهذا المذهب الجديد الذى ظهر بين أحرار الفكر المسيحى ، والذى يطلق عليه أحياناً اسم

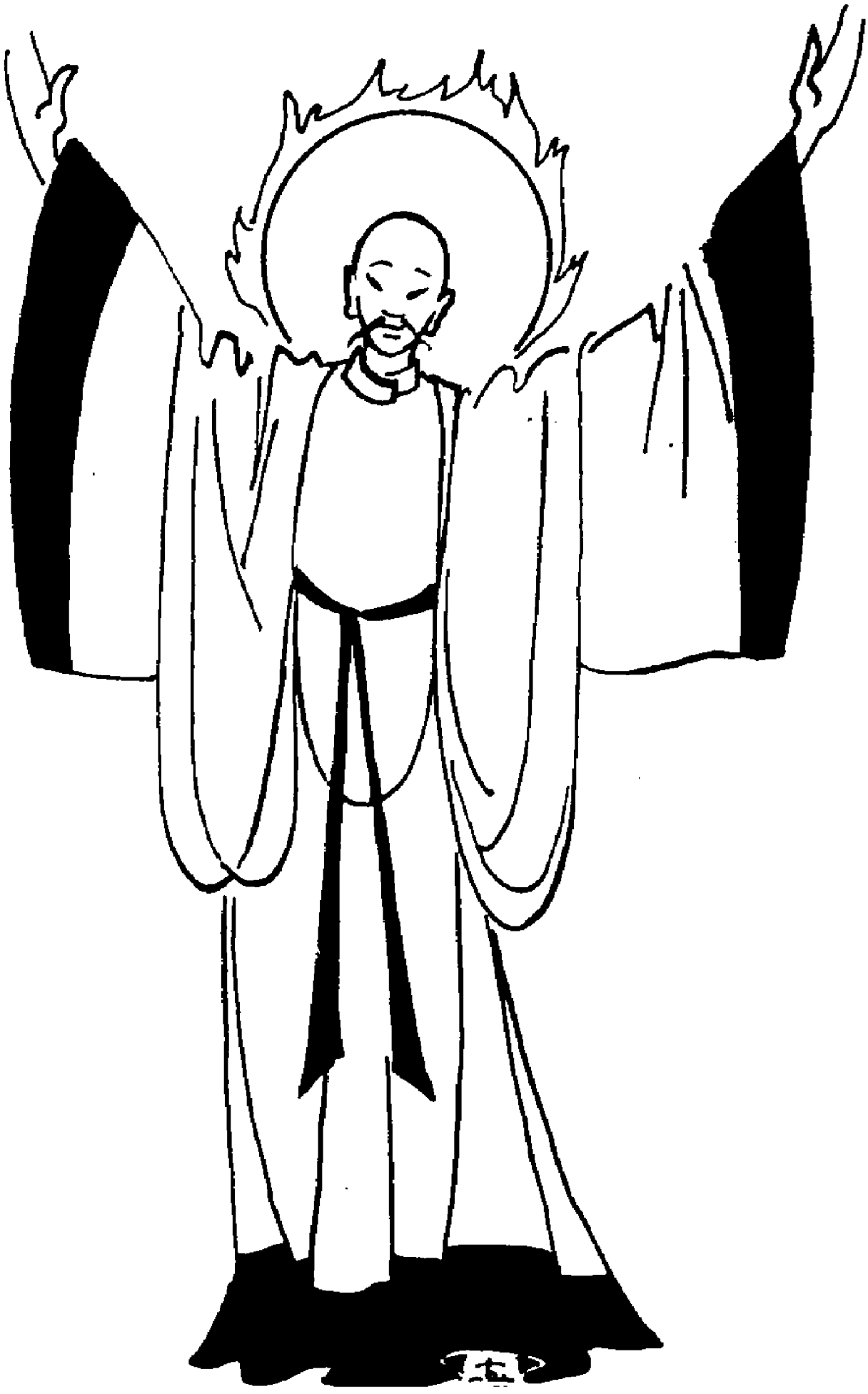

المذهب الإنسانى Humanism . والواقع أن كونفشيوس هو أول إنسانى ظهر فى العالم ، وأساس تعاليمه أن لا يعتمد الإنسان على أى كائن علوى أو أية قوة غير منظورة يطلب منها العون والتوفيق فى حياته ، بل على المرء أن يصل إلى ما يتمناه من مراتب التقدم والسعادة عن طريق ذاته فحسب ، وذلك يكون بتثقيف نفسه وتهذيبها ، لأن المعرفة الصحيحة هى وسيلة الحياة السعيدة الهانئة ، لذلك كان كونفشيوس يحث الناس دائماً على توسيع مداركهم سواء المتصل منها بالعالم الخارجى أو بذات نفوسهم . والمعرفة الصحيحة هى التى تخلق الرجل السعيد الموفق وهى التى تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة ، وهى التى تؤدى بوجه عام إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام .

إن الذى يقول إن الكونفشيوسية ليست دينا ، وإن كونفشيوس لم يكن من بين زعماء الأديان فى العالم إنما يذهب فى قوله إلى عكس ما جاءت به الأديان السماوية . فقد ورد فى الإنجيل مثلا « إن الرجل الذى يظهر بين الناس فى مظهر المتدين ولا يعف لسانه عن إيذاء الغير إنما يخدع نفسه . ودينه عبث لا طائل من ورائه ، وإن الدين الطاهر الخالص من الشوائب عند الله هو أن يزور المرء الأيتام والأرامل فى كربهم

وحزنهم والمتدين هو الذى يحفظ نفسه طاهر الذيل لم تلوثه أدران هذا العالم » .

إن هذه الوصايا كونفشيوسية فى جوهرها فقد أوصى حكيم الصين بصفة خاصة بحفظ اللسان عن الزلل كما بين أهمية الروابط العائلية وضرورة الحياة الطاهرة النقية المنزهة عن الشوائب .

وصفوة القول إن كونفشيوس كان من الذين يرون أن الدين هو المعاملة، وليس الدين جماع تلك الطقوس والشعائر التى ينظر إليها البعض على أنها أساس الدين وجوهره . فالدين عند كونفشيوس هو مواساة اليتيم والبر بالفقراء والمعوزين وحفظ اللسان من النيل من أعراض الناس وكف اليد عن الاعتداء على الغير والاحتفاظ بالنفس طاهرة دون أن تدنسها الشرور والآثام .

وهناك فى أمريكا اليوم اتجاه نحو التعاليم الكونفشيوسية ، فإن أحرار الفكر من المسيحيين يرون أن أركان الدين الصحيح ليست فى إقامة الصلاة ، والقيام بالشعائر والطقوس الدينية المختلفة ، أو الاعتقاد فى إله واحد لا شريك له ، أو فى خلود النفس أو نحو ذلك من المعتقدات الدينية ، إنما أساس الدين وجوهره هو المعاملة .

ويرى كثير من الناس اليوم أن الحكم العادل هو الدين

الذى تتطلع إليه الإنسانية وذلك ما كان يدعو إليه كونفشيوس منذ أربعة وعشرين قرناً خلت . وكثيراً ما ترد فى تعاليم كونفشيوس هذه العبارة التى جمعت فأوعت :

« ما لا تحب أن يصنع معك فلا تصنعه مع الآخرين » .

إن كونفشيوس كان يرى أن السماء والحكومة والشعب هى القوى الثلاث السامية . فالسماء هى التى تشرع القوانين والقواعد العامة التى تنظم الحياة الإنسانية ، والحكومة تتلقى هذه القوانين والقواعد وتقوم على تنفيذها . أما الشعب ومن يقوم بتنفيذ هذه القوانين فيعيشون وفقاً لنصوصها . فليس هناك والحال هذه مجال لطائفة الكهنة ورجال الدين ، لأن القوانين السماوية لا تقوم على أية عقيدة خافية أو مستورة ، لأن هذه القوانين تشكل نفسها فى صورة الظواهر الطبيعية والمجتمع الإنسانى ، وإن ما تتضمنه هذه القوانين قد توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل . وليس هناك فى الوقت ذاته مكان للحكومات أو الحكام الذين يفرضون قوانينهم ونظمهم الدينية الخاصة بهم . وعلى هذا فإن مذهب كونفشيوس عبارة عن فحوى فضائل الأديان السماوية ، وأفضل ما جاءت به الحكومات المثلى من نظم وقواعد مع تجنب أخطار كليهما .

وقد جعل كونفشيوس لطبقة المعلمين مكاناً ممتازاً فى

الدولة وهى الطبقة التى واجبها دراسة القوانين وصيانتها من كل عبث ، وبذلك أنشأ كونفشيوس بين طبقة الحكام والشعب طبقة ثالثة مهمتها الجهاد فى جبهتين : الأولى ضد الحكومة أى مراجعتها إذا ما خرجت عن حدود القوانين المرسومة ، والثانية جهاد مع الشعب لتيسر له الحصول على العلم والحكمة . وكان من مميزات هذه الطبقة الجديدة أنها لم تنغمس قط فى أى نشاط غير هذا النشاط المرسوم لها ، وذلك على عكس أمثالهم من طبقة المعلمين والفلاسفة فى الدول الغربية .

وقد نجح كونفشيوس فى رفع هذه الطبقة إلى مكانة مرموقة لها نفوذها وأثرها فى الحياة الصينية ، بل وغدت هى طبقة المعلمين والفلاسفة التى تعترف بها الدولة رسمياً .

والآن فلننظر كيف تيسَّر لكونفشيوس صنع هذا كله وعلى أى أساس أقام مذهبه وتعاليمه ، على أن ذلك يدعونا أولا إلى التحدث عن نشأة كونفشيوس وحياته وكيف كان يعلم الناس هذا المذهب الجديد

والد كونفشيوس

فى عام ٥٥٢ قبل الميلاد أخذ القلق يساور جندياً عجوزاً

من أهل إقليم شانتونج من أعمال الصين إذ شعر بدنو أجله وليس له ولد . وكانت الطقوس الجنائزية الصينية الصحيحة لا تتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان للمتوفى ولد يقوم على هذه الطقوس . وكان لهذا الجندى البالغ من العمر أكثر من سبعين عاماً تسع بنات ، وكان له إلى جانبهن ولدان من إحدى المحظيات ؛ ولكنه كان يريد له ابناً شرعياً تعترف به الجماعة . لذلك عقد العزم على أن يتخذ له زوجة أخرى غير زوجته الأولى التى لا تلد له إلا البنات .

كان هذا الرجل سليل أسرة صينية قديمة شريفة هى أسرة « كُنج » لذلك كانت رغبته أن يصهر إلى أسرة تعادل أسرته صيتاً وشرفاً . فاتجهت أنظاره إلى أسرة «ين » وسأل أحد أفراد هذه الأسرة أن يزوجه إحدى بناته الثلاث . فجمع هذا الرجل بناته وأوضح لهن مزايا الزواج من هذا الجندى المسن ، وما قد يكون فى ذلك من عيب أو نقص ثم سأل عن أية واحدة منهن ترغب فى الزواج منه . فصمتت الابنتان الكبيرتان عن الجواب ، أما الابنة الصغرى «شنج — تسى » فتقدمت نحو والدها وانحنت أمامه انحناءة طويلة تنطوى على الاحترام والتبجيل وقالت :

« لم تسألنا يا أبت ؟ لك أن تقرر ما تراه فى هذا الشأن » .

« حسناً إنك سوف تتزوجين هذا الرجل » .

وبعد ذلك بعام واحد جلبت هذه الزوجة الصغيرة — التى لم تكن سنها تزيد فى ذلك الوقت على ثمانية عشر عاماً — البهجة والسرور إلى قلب زوجها العجوز لأنها انجبت له غلاماً

ولا يزال إلى اليوم يعيش فى إقليم شانتونج بالصين سلالة هذا الغلام من أبناء الجيلين الخامس والسبعين والسادس والسبعين ، ولا يزال الناس هناك يبجلونهم ويحترمونهم أشد الاحترام لأنهم من سلالة كونفشيوس العظيم .

اسم الغلام

لم يكن هذا الغلام يدعى كونفشيوس ، بل ولم يسمع أحداً قط فى حياته يناديه بهذا الاسم . أما الاسم كونفشيوس فهو صياغة لاتينية لاسم هذا الصبى ، صاغها القساوسة اليسوعيون الذين كانوا يعيشون فى الصين فى القرن السادس عشر ، وهم الذين أوصوا البابا فى روما بأن يدرج اسم كونفشيوس فى قائمة قديسى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . كان هذا الغلام يسمى « كنج — فو — تسى » ومعنى هذه الكلمة « كنج السيد » أو « كنج المعلم » ومن ثم كانت الصيغة كونفشيوس هى أقرب الصيغ اللاتينية التى ارتآها اليسوعيون لهذا الاسم الصينى .

ومن الواضح أن هذا الاسم لم يطلق عليه عند ولادته ، إنما أطلق عليه أول ما أطلق اسم « كن » أى « التل الصغير » . ولا ندرى هل كانت هذه التسمية قد أطلقت عليه بسبب وجود تل صغير إلى جوار البقعة التى ولد فيها أم بسبب شكل رأسه الخاص الذى يشبه التل . وقد أطلق عليه فى الوقت ذاته اسم آخر هو « شنج نى » ومعنا تل نى الثانى أما تل نى الأول فهو أخوه غير الشقيق من محظية أبيه . والواقع أن الاسم الحقيقى لهذا الغلام هو « شنج نى » .

وقد ظهرت على هذا الغلام وهو فى حداثته آيات النبوغ والذكاء ، نستدل على ذلك من القصص والروايات التى يحكيها عنه تلاميذه ومريدوه . فهم يقولون إن ملكاً تجلى لأمه شنج — تسى وقال لها :

« سوف يكون لك غلام وسوف يكون أعقل الناس أجمعين » وهم يقولون أيضاً إن حيوانا عجيباً أشبه بالوعل أو وحيد القرن أو التنين قد وضع أمام « شنج — تسى » حجراً كريماً منقوشاً عليه هذه العبارة :

« سوف يكون غلامك ملكاً غير متوج »

الصين عند ولادة كونفشيوس

ولد كونفشيوس فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد وهو الوقت الذى ظهر فيه حزقيل ودانيال من أنبياء الله فى فلسطين، وصولون المشرع وفيثاغورس الفيلسوف فى اليونان وبوذا الحكيم فى الهند . وكانت الصين فى ذلك العهد تمر بعهدها الإقطاعى إذ كان حكامها الإقطاعيون قد وطدوا أقدامهم فى مدنهم المسورة الحصينة . وكان كل منهم يحكم مدينة أو أكثر وينوب عنه فى حكم المدن البعيدة أتباع خاضعون له . وكان يعيش هؤلاء الحكماء والأمراء والأتباع فى قصور فسيحة داخل أسوار مدنهم يحتقرون الفلاحين وعامة الشعب الذين لا يحفلون بشىء إلا بملأ كلهم ومشربهم وليس لهم أى نصيب فى الثقافة والمعرفة . وكانت الثقافة السائدة بين أهل هذه القصور ثقافة دينية فى مبناها وجوهرها . فبلاط الحاكم الإقطاعى هو المكان المقدس وقبلة أهل الورع والدين. والضرائب التى تقدم إلى الحاكم الإقطاعى هى بمثابة القرابين التى تقدم على مذابح المعابد والهياكل الدينية . وكلمة الحاكم هى الكلمة المقدسة الواجب على أفراد الشعب جميعاً طاعتها دون اعتراض أو مناقشة .

وكان الأتباع والأمراء ورجال الدولة بحكم اشتراكهم فى حياة البلاط الصينى عليهم أن يكونوا على معرفة تامة بالطقوس والشعائر المرعية فى البلاط، وأن يدركوا تماماً ما تنطوى عليه جميع الرموز والإيماءات من دلالات ومعان . وللوصول إلى هذه الغاية كان هؤلاء الأمراء والأتباع يحيطون أنفسهم بالمستشارين والمعلمين يتلقون عنهم أصول هذه الطقوس والشعائر ودلالاتها المختلفة ، ومن ثم نشأت من بين صغار النبلاء بالمدن طبقة خاصة أخذت على عاتقها دراسة هذه الطقوس والشعائر دراسة مستفيضة، لكى تقوم بخدمة الأمراء والأتباع فى هذه الناحية الخاصة . وأفراد هذه الطبقة هم من المعلمين والفلاسفة ورجال الأدب . ثم نشأت بعد ذلك مدارس خاصة لإعداد صغار الأتباع ونحوهم للخدمة بالبلاط أو لتولى الخدمة العامة فى الحكومة . وبدأت هذه المدارس عملها متنقلة — أساتذة وطلابا — من بلاط إلى آخر، ثم اتسعت برامجها مع مضى الزمن فأصبحت تشمل الفنون العسكرية والاقتصاد والفلك والقانون وعلم الأخلاق. فغدت بذلك بمثابة جامعات متنقلة . غير أن النزاع والنقاش ما لبث أن دب بين هذه المدارس وبعضها بسبب نفوذها وسلطانها على الأمراء وكبار رجال الحكم بعضها فكانت

سبباً فى قيام كثير من الفتن والقلاقل فى البلاد بل أصبحت آخر الأمر مصدر قلق وانزعاج فى ربوع الصين كلها .

ولم يكن غريباً والحال على هذا المنوال أن ضربت الفوضى أطنابها فى طول البلاد وعرضها ؛ نستدل على ذلك من حادث وقع لكونفشيوس نفسه يبين لنا مدى ما كان يعانيه الشعب الصينى من عسف وظلم . كان كونفشيوس يقوم هو وتلاميذه برحلة تعليمية فى البلاد المجاورة لجبل تاى ، وبينما هو فى طريقه سمع سيدة تصرخ وتستغيث . فلما سألها عن سبب بكائها وعويلها فى هذه الصحراء البلقع أجابت :

« لقد قتل نمر مفترس والد زوجى فى هذه البقعة ، كذلك افترس هذا النمر زوجى ثم افترس من بعده ولدى » .

فسألها كونفشيوس

« ولماذا تقطنين هذا المكان القفر المهلك ؟ » فأجابته

« لأنه لا يوجد هنا حاكم ظالم » .

وعندما سمع كونفشيوس هذه الإجابة استدار نحو تلاميذه وقال لهم :

« اكتبوا عندكم أيها التلاميذ أن الحاكم الظالم أخطر من النمر المفترس » .

حداثته وطلبه للعلم

لا نعرف إلا القليل عن حداثة كونفشيوس ، ولكن لدينا أساطير كثيرة تشهد بطموح هذا الشاب وسعيه إلى طلب العلم والمعرفة . وتذكر الروايات أن كونفشيوس كان يسهم وهو فى الرابعة عشرة من عمره فى تعليم أنداده من الصبيان ، لأنه كان قد وعى وهو فى هذه السن كل ما يستطيع المعلم تلقينه للتلاميذ.

غير أن هذا لا يدعونا إلى القول بأن هذا الشاب قد انصرف كلية إلى تحصيل العلم دون شيء آخر من شئون الحياة ، بل إنّا نعلم مما وصل إلينا من تاريخ حياته أنه كان صياداً ماهراً كما أجاد قيادة المركبات على اختلاف أنواعها ، وكان فوق ذلك كله موسيقياً بارعاً .

وكان كونفشيوس يعمل فى غير أوقات الدرس أعمالا تدر عليه بعض المال يستعين به على تدبير شئون أسرته . فقد توفى أبوه بعد مولده بثلاث سنوات فاضطر هذا الشاب — وهو بعد فى مرحلة التعلم — إلى كسب معاشه عن طريق العمل . بل إن لحوم الطير والأسماك التى كان يصيدها بنفسه كانت تؤلف ركناً هاماً من الأطعمة التى تقدم على مائدة أسرته . والواقع أن كونفشيوس لم يدخر وسعاً فى سبيل زيادة دخل

أسرته والعمل على إسعادها بمختلف الوسائل .

كونفشيوس بين موظفى الحكومة

ما إن بلغ كونفشيوس السابعة عشرة من عمره حتى أسندت إليه إحدى الوظائف الحكومية فى إقليم « لو » الذى كان يعيش فيه . ولم تكن هذه الوظيفة بطبيعة الحال على جانب كبير من الأهمية ولكنها كانت وظيفة مشرفة . لقد عهد إلى كونفشيوس أمر خزن الحبوب فى هذا الإقليم والإشراف على بعض الأراضى العامة التابعة للحكومة .

وسرعان ما اكتسب احترام الناس له ، وبلغ مكانة مرموقة فى المجتمع الذى يعيش فيه وذلك لدقته وإخلاصه فى العمل . ويغلب على الظن أنه أظهر فى عمله ذكاء ومقدرة لم تكن ملحوظة من قبل بين موظفى الحكومة .

وقد أفصح كونفشيوس لأول مرة وهو فى هذه المرحلة من حياته عن فلسفة فى الحياة ، وذلك عندما عهد إليه تسوية نزاع قام بين جماعة من الرعاة المتنافسين ، إذ جمعهم جميعاً وألقى عليهم درساً فلسفياً فى سخافة التنازع على توافه الأمور .

وقد أظهر كونفشيوس فى ذلك الوقت نزعة ترمى إلى وضع قواعد مبسطة لسلوك الإنسان . فقد أدرك أن هؤلاء الرعاة

المتنافسين وأشباههم من سواد الشعب لا يدركون فلسفة التعاليم الصينية القديمة والمبادىء الخلقية التى تتضمنها الكتب الصينية القديمة التى عكف كونفشيوس على دراستها . لذلك رأى أن من واجبه تبسيط هذه الفلسفة والتعاليم ، ثم استخلص منها فى نهاية الأمر قاعدة بسيطة اتخذها مقياساً للسلوك القويم فى هذه الحياة .

كانت المهمة التى اضطلع بها كونفشيوس أشبه بالمهمة التى جابهت موسى قبل ذلك بسبعة قرون ، غير أن الحل الذى جاء به كونفشيوس هو عين الحل الذى قال به عيسى بعد ذلك بستة قرون تقريباً . فهو بدلا من الوصايا العشر التى جاء بها موسى قدم لهؤلاء الرعاة المتخاصمين مبدأ بسيطاً شاملا حيث قال لهم :

« لا تصنع بالآخرين ما لا تحب أن يصنعوه معك » .

وقد يكون فى وضع هذا المبدأ الخلقى بصيغة النفى هذه ضعف من الناحية التعليمية ، غير أن كونفشيوس استطاع مع ذلك أن يذهب مباشرة إلى لب المسألة وأن يكشف عن المبدأ الذى يصح أن يكون نبراساً لسلوك الإنسان .

قال كونفشيوس بهذا المبدأ وهو فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ؛ ثم ردده كثيراً بعد ذلك فى تعاليمه التى قال

بها عندما اكتملت رجولته وذاع صيته فى بلاد الصين كلها . ولم يكن تعلق كونفشيوس بالواجب واحترامه لحقوق غيره سبباً فى احترام الناس له فحسب ، بل كان أيضاً سبباً فى ازدياد دخله . وهذا قد مكنه من أن يتخذ له زوجة وهو فى التاسعة عشرة من عمره .

كونفشيوس رب أسرة

لا نعرف شيئاً عن زوجة كونفشيوس ، غير أنها أنجبت له ولداً بعد عام واحد من زواجه منها أى فى عام ٥٣١ قبل الميلاد .

ووصلت إلينا قصة تدلنا على المكانة الممتازة التى كان يتمتع بها كونفشيوس فى نفوس معاصريه . فقد ذهبت هذه القصة إلى أن حاكم ولاية « لو » الصغيرة التى يعيش فيها كونفشيوس قد أرسل إلى هذا الوالد الشاب المبتهج بمولد ابنه سمكتين من نوع الشبوط ليكونا بين ألوان الطعام الذى يقدم على مائدة أسرة كونفشيوس ، فى الحفل الذى يقام عادة لهذه المناسبة السعيدة . وكان رد كونفشيوس على هذه الهدية أن أطلق على ولده اسم « لى » وهى الكلمة الصينية التى تدل على سمك الشبوط .

وفى ذلك الوقت الذى كان يحتفل فيه كونفشيوس بمولد ابنه كان بوذا فى الهند يحتفل هو الآخر بتسمية ولده « رهولا » . وتذهب الروايات إلى أنه قد ولد لكونفشيوس أيضاً ابنتان ، وذلك قبل أن تعصف الأحداث بحياته الزوجية السعيدة . ولم تفصح التواريخ الصينية عن سبب اختلاف كونفشيوس مع زوجته . والراجح أن الطلاق قد وقع بينهما بعد أربع سنوات من زواجهما ، وقد يكون ذلك بسبب طول حزن كونفشيوس على وفاة أمه .

لقد كانت العادة فى الصين أن يعتزل الشاب الحياة مدة طويلة عند وفاة أحد والديه . وكان كونفشيوس على الدوام مستمسكاً بتلك التقاليد والعادات الصينية القديمة ، لذلك ظل شهوراً طويلة يتردد على قبر والدته يتأمل فى الحياة وفى الموت . وقد ظل على هذه الحال سبعة وعشرين شهراً .

ومن المعروف أن كونفشيوس كان فى الرابعة والعشرين من عمره عندما توفيت أمه . والواقع أن وفاتها قد تركت فى نفسه أثراً عميقاً لا يمحى ، ولعل هذه الصدمة قد جعلته يتصرف تصرفاً قد ألحق الضرر بزوجته ، فإنه قد انصرف كلية عنها خلال المدة التى أخذ فيها يتردد على قبر أمه — وهى تزيد على السنتين — إذ كان منصرفاً فيها إلى التأمل فى أحداث الحياة والموت ،

ولا ندرى على التحقيق هل كان يعولها مادياً خلال تلك العزلة أم تركها هى وأولادها نهباً للأقدار . وقد يكون كونفشيوس قد أهمل واجبات أمه بعض الشىء وهو فى غمرة النشوة بالزواج ثم بإنجاب الأبناء . فلما توفيت أمه أخذ ضميره يؤنبه على ما بدر منه فسلك هذا المسلك تكفيراً عن خطئه ولكنه أدى آخر الأمر إلى انفصاله عن زوجه .

كونفشيوس المعلم

عاد كونفشيوس إلى تلاميذه ومريديه بعد أن أتم أشهر الحداد على وفاة أمه ، واستأنف إلقاء دروسه التى كان قد بدأها بعد زواجه بقليل . والواضح أن كونفشيوس كان من طائفة المعلمين الجوالين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر وحولهم عدد من التلاميذ يستمعون إلى تعاليمهم التى توحى بها الأحداث والظروف التى تمر بهم أثناء تجوالهم ، كما حدث عندما لقى المرأة التى افترس النمر أفراد أسرتها . وليست لدينا معلومات نستدل منها على السبب الذى من أجله هجر كونفشيوس مركزه الحكومى واشتغل بهذه المهنة . ولعله يكون قد أدرك أثناء نظره فى النزاع الذى شب بين الرعاة المتخاصمين أنه قد أوتى ملكة الوعظ والإقناع وتبسيط المعقد من الآراء والنظريات فآثر أن

يشتغل بمهنة التدريس ليعلم الناس ويثقفهم وليقرب العويص من النظريات والآراء إلى أفهامهم وذلك بجعلها على هيئة وصايا وأمثال وقصص .

ونلاحظ أن الأنبياء والزعماء الدينيين قد اتجهوا جميعاً هذه الناحية من حيث تبسيط المعلومات والآراء وجعلها مستساغة لدى جمهور الناس . وإذا كنا نقيس مدى نجاحهم فى هذا المضمار بعدد الناس الذين تأثروا بأقوالهم المبسطة، فإن كونفشيوس يكون له قصب السبق فى هذا المضمار دون منازع .

كان كونفشيوس فى الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين عندما أخذ يعلم الناس الحكمة وفلسفة الحياة بأسلوبه السهل الممتنع ، وقد يكون ذلك هو السبب الذى من أجله افترق عن زوجته إذ لعلها اشتكت طول غيابه عن المنزل تاركاً جميع الأعباء المنزلية على عاتقها وحدها . ولعل احتجاجها كان منصباً بصفة خاصة على قلة ما يحصل عليه من المال من مهنة التدريس، إذا قيس الحال بما كان يحصل عليه عن طريق عمله فى الحكومة مما جعل الحياة أمامها شاقة عسيرة .

وقد نقول من ناحية أخرى إن كونفشيوس قد شعر بأن الحياة الزوجية عبء ثقيل على رحل وهب حياته للوعظ

والإرشاد والتنقل فى رحاب العالم . ومهما يكن من الأمر فإن تحول كونفشيوس من الوظيفة الحكومية إلى الوعظ والإرشاد ، وانفصاله عن زوجته وحداده على أمه ، كلها أحداث قد وقعت فى فترات متقاربة مما سببت لكونفشيوس أزمة نفسية عنيفة .

وليست هناك أية أدلة تاريخية تثبت أن كونفشيوس كان من نوع الأنبياء أو القديسين الذين تتجلى لهم الرؤى أو تهتف بهم الهواتف السماوية تأمرهم بدعوة الناس إلى الحق وسلوك الطريق المستقيم ، إنما كان حكيما من الحكماء اطلع على كتب الأولين واستخلص زبدتها ، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لما تحويه هذه الكتب من وصايا وتعاليم .

اتخذ كونفشيوس فى تعليمه الطريقة التى اتخذها أرسطو فى اليونان بعد ذلك بقرنين من الزمان ، فقد جرت عادته على التنقل من مكان إلى آخر وفى صحبته نفر من التلاميذ والمريدين يستوحون آراءه وتعاليمه فى كل ما يعن لهم من المسائل . ولم يكن هؤلاء التلاميذ يعبأون بطول المسافات التى يقطعونها فى صحبة أستاذهم ، وكان كونفشيوس ينتقل على عربة تجرها الثيران فكان من السهل على تلاميذه مسايرته سيراً على الأقدام . ومن الواضح كما ذكرنا من قبل أن الحوادث التى كانت تصادفهم عرضاً فى طريقهم هى التى كانت توحى بموضوع الحديث .

وليس من شك أن الطريقة الحديثة فى التربية والتعليم التى تذهب إلى أن إخراج التلاميذ من حجرات الدرس المغلقة وجعلهم يحتكون بالأحداث التى تقع فى معترك الحياة هى أحسن وأجدى وسيلة فى التربية والتعليم ترجع إلى طريقة كونفشيوس فى تعليمه .

وكانت برامج الدروس التى يلقيها كونفشيوس على تلاميذه تشمل الموسيقى والشعر والتاريخ والآداب والتربية الوطنية والأخلاق ، هذا إلى قليل من العلوم التى كانت معروفة إلى ذلك العهد .

ومما هو جدير بالملاحظة أن كونفشيوس قد استبعد من برامجه الدراسية الموضوعات المتصلة بتمجيد البطولة الجسمانية والأعاجيب والثورات وخوارق الطبيعة . والظاهر أنه لم يكن يعترض على تلاميذه فى قيامهم بالطقوس والرسوم الدينية التى كانت سائدة فى عهده ، ولكنه مع ذلك كان يتحاشى الدخول فى مناقشات تتصل بالكائنات غير المنظورة . ومن القواعد التربوية الفذة التى اتبعها كونفشيوس أنه كان يهتم كثيراً بأن يكون على اتصال شخصى دائم بتلاميذه ليتعرف أحوالهم الشخصية وما قد يعترضهم من صعاب وأزمات نفسية فيعمل وإياهم على حلها بميزان الحكمة والاعتدال . وكان

كونفشيوس لا يصد أى تلميذ عن حضـــور دروسه وتعاليمه إذا لاحت عليه مخايل الذكاء والنجابة ، وكان كل ما يشترطه فى التلميذ هو أن يتوافر فيه الجد والاجتهاد والأخلاق الفاضلة والرغبة الحق فى التعلم. وكان كونفشيوس يعنى عناية خاصة بالتربية الوطنية ونظام الحكم وما يجب أن تكون عليه الحكومة الصالحة والحكم الصالح ، لذلك كان يؤثر بعنايته الخاصة كل تلميذ تظهر عليه مخايل النجابة فى هذا الفن : أى فن الحكم .

وكانت أفعاله جميعاً مثالا يحتذيه تلاميذه ؛ بل كانت عاملا هاما فى تثقيفهم وإرشادهم . ومما أثر عنه أنه كان شديد العطف على الحيوان حتى إنه كان لا يتخذ إلا الملابس المصنوعة من الكتان على الرغم من انتشار الأقمشة الحريرية فى الصين . وقد سأله أحد تلاميذه فى ذلك فقال إنه لا يستبيح لنفسه أن يقتل دودة القز ليستولى على نسيجها الخاص بها ليصنع منه رداء له ، كذلك كان لا يشرب اللبن لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمة . وكان يفخر بأنه لم يستعمل قط شبكة لصيد السمك ولم يرم طائراً بسهم ، إلا إذا كان هذا الطائر محلقاً فى الفضاء لكى يتيح له فرصة الهروب . ولعل ذلك الآن من الآداب التى يتبعها أفاضل رجال الصيد والطراد والرياضة .

وعلى الرغم من أن كونفشيوس كان مدرساً ناجحاً اكتسب شهرة فائقة فى طول البلاد وعرضها إلا أنه لم يقنع بأن تكون هذه المهنة هى غايته من الحياة ، بل كان يبغى من صميم فؤاده أن يتمكن فى يوم من الأيام أن يلى منصباً حكومياً كبيراً حتى يستطيع عن طريقه أن يطبق عمليا ما يلقنه تلاميذه من دروس ونظريات خاصة بنظام الحكم . والواقع أن تطلعه لمثل هذا المنصب الحكومى لم يكن لغرض مادى أو الحصول على الجاه والسلطان إنما كان يسعى إلى تدبير شئون الدولة تدبيراً صحيحاً عادلا ، والعمل على إيجاد مجتمع لا تصنّع فيه ولا رياء .

كونفشيوس والفيلسوف لاؤ — تسى

كان يعيش فى إحدى الولايات المجاورة لولاية « لو » التى يعيش فيها كونفشيوس حكيم صينى آخر ذائع الصيت يدعى لاؤ — تسى . وكان هذا الحكيم لا يهتم هو الآخر بالآلهة والقوى الخفية غير المنظورة ، إنما كان همه تقويم الأخلاق ورسم طريق صحيح لسلوك الإنسان فى حياته . ويعرف الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من مؤلفات لاؤ — تسى باسم « كتاب الطريق إلى الفضيلة » أو « قانون العقل والفضيلة . »

وهو عبارة عن رسالة فى الأخلاق لا تحتوى على أى شىء من الدين كما يفهم الآن من هذه الكلمة . وكانت تعاليم كونفشيوس لا تتفق وبعض مبادئ هذا المفكر الصينى الكبير ، إذ كانت تتعارض وإياها فى بعض النقاط الجوهرية . فرأى كونفشيوس أن يذهب لزيارته عسى أن تؤدى هذه الزيارة إلى اكتساب بعض المعارف التى تكون قد غابت عنه . وكان لاؤ — تسى قد بلغ فى ذلك الوقت الرابعة والثمانين من عمره فى حين أن كونفشيوس لم يكن تزيد سنه على أربعة وثلاثين عاماً .

ولسنا نعرف على التحقيق ما إذا كان لاؤ —تسى أى لاؤ المعلم وكونفشيوس قد جرى بينهما نقاش فى أثناء تلك المقابلة. والذى نستخلصه من أوثق المصادر أن هذا الفيلسوف العجوز قد أسدى كثيراً من النصائح لهذا الشاب الحكيم ، وأن كونفشيوس قد انصرف من حضرة هذا الفيلسوف وهو معجب أشد الإعجاب بما سمعه منه من حكم ومواعظ .

ولقد كان الحكيم الصينى لاؤ — تسى المعاصر لكونفشيوس هو أول من قال إن الإنسان عليه أن يرد الإساءة بالإحسان . وبهذا يكون قد سبق المسيح عليه السلام بأكثر من ستة قرون . فقد جاء فى تعاليمه ما يلى : « إننى طيب مع هؤلاء الذين هم طيبون معى .

وإننى طيب أيضاً مع هؤلاء الذين ليسوا طيبين معى .
وهكذا يتأتى أن يكون الجميع معاً طيبين » .

وقال لاؤ — تسى أيضاً :

« ردوا الإساءة بالإحسان » .

غير أن كونفشيوس لم يرض عن هذا المبدأ إذ كان من رأيه أن يكون الجزاء من جنس العمل فقد قال :

« رد الإساءة بالعدل ورد الإحسان بالإحسان » .

وعلى هذا يمكن أن نضع لاؤ — تسى فى صف واحد مع عيسى من حيث وحدة التعاليم التى جاء بها كل منهما ، وأن نضع كونفشيوس فى صف واحد مع موسى الذى جاء يبشر بشريعة العين بالعين والسن بالسن .

والواقع أن مذهب كونفشيوس فى هذه الناحية لم يكن قائماً على الحقد أوحب الانتقام ، بل كان يرتكز على فكرة جوهرية وهى أن الأخلاق الشخصية أى معاملة الناس بعضهم لبعض لا يجب أن تكون أسمى من معاملة الحكومة لرعاياها ، لأنه إذا كانت الحكومة تحسن أو تتغاضى عمن يسىء إلى البلاد أو إلى القائمين بالحكم فإن مآل ذلك إلى الفوضى وسوء الحال ، أما إذا حاسبتهم على أفعالهم حساباً عادلا فإن الأمور تستقيم وتستطيع الحكومة القيام بواجباتها على الوجه الأكمل .

والواقع أن مذهب كونفشيوس كان أكثر صلاحية لأحوال الصين فى ذلك العهد ، إذ كانت البلاد مهددة بالفتن والقلاقل فكان على الحاكم الحصيف أن يستعمل الشدة المشوبة بالعدل فى مواضع الشدة ويستعمل الإحسان والعدل حيث يستحب منه ذلك .

وتذكر بعض الروايات من ناحية أخرى أن لاؤ — تسى قد انتقد كونفشيوس أثناء مقابلته له ، لأن كونفشيوس كان يهتم كما ذكرنا من قبل بالتقاليد القديمة التى أثرت عن حكماء الصين الأقدمين ، وكان يعمل جهده على إحياء هذه التقاليد ، وكان يأمل من ناحية أخرى أن يجد عند لاؤ — تسى ما يعينه على إدراكها إدراكاً صحيحاً ولكن هذا الفيلسوف العجوز قال له :

« إن الرجال الذين تتحدث عنهم قد ماتوا واستحالت عظامهم إلى تراب فاصرف النظر عن مسعاك لإحياء سنن الآباء والأجداد » .

عاد كونفشيوس أدراجه بعد زيارته للاؤ — تسى وأخذ يتدبر كلمات هذا الفيلسوف المسن . وقد قال لتلاميذه وهو فى طريقه إلى بلده : « إنى أعرف كيف يطير الطير وكيف تسبح الأسماك وكيف يجرى الحيوان ، ولكنى لا أستطيع أن أعرف

كيف يعتلى هذا التنين متن الرياح ويطير فى السماء . لقد رأيت لاؤ– تسى وإنى لا أستطيع مقارنته إلا بالتنين » .

قد يكون هذا القول مدحاً فى لاؤ– تسى أو سخرية منه ومن فلسفته المثالية .ومهما يكن من الأمر فإن لاؤ– تسى قد لاح فى عين كونفشيوس أشبه شىء بالحالم المحلق فى سماء تأملاته ، وأن كونفشيوس قد لاح فى عين لاؤ– تسى وكأنه الفضولى الذى يتدخل فى شئون الناس ويدس أنفه فى كل ما لا يعنيه .

والواقع أن كلا من هذين الحكيمين كان له أكبر الأثر فى نفوس أهل الصين وفى توجيه أفكارهم وإن اختلف بعضهما عن بعض فى أغراضهما ووسائلهما وفى طريقة حياتهما ونظرتهما إلى الحياة .

كونفشيوس فى مناصب الحكم

ظل كونفشيوس بعد مقابلته للفليسوف لاؤ– تسى يشتغل بمهنة التدريس سبعة عشر عاماً أخرى . وعندما بلغ الخمسين من عمره لاحت له الفرصة التى كان يترقبها منذ أمد طويل ، إذ عين فى عام ٥٠٠ قبل الميلاد قاضياً بولاية «لو» مسقط رأسه فأظهر فى عمله هذا مقدرة فائقة وعدلا مطلقاً بحيث لهجت

الألسنة بالثناء عليه ؛ وذلك قد دفع ولاة الأمور إلى إسناد منصب وزير الأشغال إليه ثم منصب وزير العدل .

ومن الواضح أن آراء كونفشيوس كانت عملية بعيدة عن النظريات الميتافيزيقية التى لا يمكن تحقيقها ، ومن ثم صادف عمله فى المناصب الحكومية التى تولاها نجاحاً ملحوظاً ظهر أثره بادئ الأمر فى ولاية «لو» ثم تعدى ذلك إلى الولايات الصينية المجاورة . وقد استتب الأمن والنظام فى البلاد واحترم الناس القانون منذ أن اعتلى كونفشيوس منصب الوزارة . وكان هم الحكومة الأكبر قبل عهده هو جمع الضرائب بمختلف الوسائل ولو جاوزت هذه الوسائل حدود العدل والرحمة ، فكان أن غير كونفشيوس من ذلك وذكر أن الحكومة ليست جابية للأموال إنما هى هادية للحق وللصراط المستقيم ، وأن على كل موظف فى الدولة أن يقوم بواجبه على الوجه الأكمل وأن يكون رائده العدل والاستقامة فبذلك تستقيم الأمور وينال كل ذى حق حقه .

ولم يستمر كونفشيوس فى مناصبه الحكومية أكثر من أربع سنوات ، إذ أخذ الحسد يدب فى قلوب حكام الولايات المتجاورة لما رأوه من تقدم ولاية «لو» واستتباب الأمن والنظام فيها نتيجة لحكم كونفشيوس العادل ، فعملوا على بث الشقاق بين دوق «لو»

وبين كونفشيوس وزير عدله . وكان من أمرهم أن أرسلوا إلى الدوق هدية تتألف من ثمانى فتيات جميلات ممشوقات يتقن الرقص والغناء وجميع فنون المجون والخلاعة . وكان أعداؤه يعرفون فيه الميل إلى النساء والانقياد إليهن ؛ لذلك ابتهج لهذه الهدية أشد الابتهاج وانصرف عن كونفشيوس ومشروعاته فى الإصلاح والعدل بين الناس . وقد حاول كونفشيوس أن يقابل الدوق ليثنيه عن هذا المسلك الشائن بعد أن رأى انغماسه فى اللهو والمجون مع أولئك الراقصات ، ولكنه لم يتمكن من مقابلته فقد هدم هؤلاء الفتيات برقصهن وغنائهن ما بناه كونفشيوس فى أربع سنوات من العمل المتواصل . لذلك لم يجد بداً من اعتزال الخدمة الحكومية والبحث عن مكان آخر يكون الحاكم فيه رجلا فاضلا عادلا يستطيع أن يعاونه فى تنفيذ مشروعاته وتعاليمه ، ولكنه باء بالفشل بعد أن أمضى فى هذا البحث ثلاثة عشر عاماً ذهبت دون جدوى .

وأخيراً استدعى كونفشيوس إلى وطنه لا ليحكم بل ليمضى بقية حياته بين تلاميذه ومريديه . وقد اشتغل كونفشيوس خلال هذه البقية الباقية من عمره — أى من سن الثمانية والستين حتى وفاته فى الثانية والسبعين — فى مراجعة الكتب الصينية القديمة التى تتضمن علوم الأولين .

الكتب الصينية القديمة

هناك تسعة كتب صينية قديمة يرتبط اسم كونفشيوس بها أشد الارتباط ، وتعرف خمسة كتب منها باسم « كنج » أما الأربعة الباقية فتعرف باسم « شو » . والكتب المعروفة باسم كنج هى :

١ — « شوكنج » أى كتاب الوثائق التاريخية

٢ — « شى كنج » أى كتاب الأشعار القديمة .

٣ — « يى كنج » أى قانون التغير .

٤ — « لى كى كنج » أى كتاب الشعائر والطقوس القديمة .

٥ — « شن شوكنج » أى كتاب الربيع والخريف .

والرأى الغالب أن كونفشيوس لم يكتب من هذه الكتب إلا الكتاب الخامس، وهو عبارة عن حوليات تناول فيها كونفشيوس تاريخ ولاية « لو » .

والظاهر أن عمل كونفشيوس بصدد الكتب الأربعة الأخرى المعروفة باسم « كنج » اقتصر على جمع شملها وإعادة كتابتها ، وإن كان بعض العلماء ينكرون عليه ذلك .

أما الكتب الأربعة الصينية المعروفة باسم « شو » فيرجع تاريخها إلى عهد متأخر عن عهود الكتب الخمسة الأولى ،

وقد قام بكتابتها تلاميذ كونفشيوس ومريدوه .

ويمكن أن نقول إن الكتب الخمسة المعروفة باسم « كنج » هى بمثابة كتب العهد القديم من سجل الكتب الصينية المقدسة ، وأن الكتب الأربعة المعروفة باسم « شو » هى بمثابة كتب العهد الجديد ، وهذه الكتب الأربعة عبارة عن ثبت للمحاورات التى دارت بين كونفشيوس ومعاصريه مع مجموعة من الحكم المختلفة والمذاهب الخاصة بموضوعات خلقية وسياسية . وهذه الكتب هى :

١ — « تاهسيو » أى المعرفة الكبرى .

٢ — « شونج يونج » أى مذهب الوسيلة الوسطى .

٣ — « لون يو » أى المنتخبات .

٤ — « منج تسى » أى منشيوس .

والكتاب الأول عبارة عن منهج لتقويم الأخلاق وبحث فى الفضيلة . والثانى عبارة عن إرشادات فى الاعتدال وعفة النفس والتوسط فى الأمور . أما المنتخبات فهى مجموعة من حكم كونفشيوس وأقواله المأثورة ، وهى أكثر هذه الكتب ذيوعاً وانتشاراً وخاصة بين الأجانب . أما الكتاب الرابع منشيوس فهو عبارة عن مجموع الشروح التى قام بها كبار الشراح لمصنفات كونفشيوس .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الكتب التسعة قد ظلت قروناً عدة لها أكبر الأثر فى توجيه حياة أهل الصين ، بل كان طالبو الالتحاق بالوظائف الحكومية يؤدون اختباراً دقيقاً فيما تتضمنه هذه الكتب ، ولكن على الرغم من هذا كله فإن هذه الكتب لم تناقش مناقشة علمية دقيقة لمعرفة مدى صحتها وتنزهها عن الخطأ .

وإذا كان لا ينسب إلى كونفشيوس إلا كتاب واحد من هذه الكتب التسعة ، فإن له الفضل مع ذلك فى أنه قد أحاط بتلك المؤلفات الصينية القديمة الكثيرة العدد واستطاع أن يستخلص منها تلك الحكم والأقوال المأثورة التى وصلت إلينا ، ولا ريب أن تلك مقدرة عظيمة قد لا تتوافر فى شخص آخر غير كونفشيوس .

لقد أحاط كونفشيوس بكل معلومات عصره ثم صاغها صياغة جديدة مبسطة قريبة إلى أفهام الشعب ومداركه ، بعد أن كانت هذه المعلومات والمعارف وقفاً على طائفة العلماء ورجال الدين بسبب التوائها وصعوبة اللغة التى كتبت بها . وليس من شك أيضاً أن كونفشيوس قد أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى الإحاطة بهذه المؤلفات القديمة وهضمها ثم تبسيطها لجمهور القراء .

وكان لكونفشيوس إلى جانب حكمه وأقواله المأثورة وتعاليمه — مشاركة أخرى قيمة فى تهذيب النفس وتثقيفها لأنه كان يدرك تماماً أن قوة الدولة هى فى ثقافة مواطنيها وأن لا شىء يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه .

وهو لهذا الغرض لم يهتم كثيراً بالدين ولكنه أوصى بتعلم الشعر ومعرفة الطقوس والشعائر المختلفة والموسيقى والنبالة .

كان يعتقد أن الشعر يدفع الفرد إلى تحقيق ما قد يكون مجرد آمال عريضة قد لا تتحقق فى عالم الواقع . أما مراعاة الطقوس والشعائر حتى ما كان منها متصلا بالدين فتربى فى النفس ملكة الانتباه الشديد إلى تفاصيل الأمور ودقائقها .

أما أهمية الموسيقى فى تهذيب النفس فإنها تؤدى بالعقل إلى الأفكار السامية وكان من عادة كونفشيوس أن يعزف على الناى مدة من الزمن قبل أن يكتب أو يبدأ فى إلقاء دروسه لأن الموسيقى فى نظره تساعده على تركيز عقله فى العمل الذى يقوم به .

وقد تكون النبالة وجعلها بين العلوم الواجب أن يتثقف بها المرء ووضعها فى مرتبة واحدة مع الشعر والموسيقى هى الأمر الذى يلفت النظر ويبعث على التساؤل .

وكان كونفشيوس يدرك تماماً أن قوة الدولة هى فى ثقافة مواطنيها وأن لاشىء يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه .

الكونفشيوسية بعد وفاة كونفشيوس

ظهر بعد وفاة كونفشيوس بنحو مائة عام حكيم صينى آخر شهير يدعى منشيوس وهو يعد أكبر وأعظم أتباع كونفشيوس قاطبة . وقد عاش هذا الحكيم من عام ٣٧٢ إلى عام ٢٨٩ قبل الميلاد ؛ حمل فيها رسالة كونفشيوس وعمل على نشرها بين الناس أجمعين . وكان من المبادئ التى أكدها هذا الحكيم أن الإنسان طيب بطبيعته وأن البيئة التى يعيش فيها هى التى قد تجنح به إلى الشر؛ فيجب والحالة هذه العناية بالبيئة وإصلاحها . ولعل منشيوس قد تكهن فى ذلك العهد البعيد بهذا المذهب الاجتماعى المعروف وذلك عندما قال إنه من المحال أن يرجى الخير والفلاح من شعب جائع مسكين ، لأن الشعب الجائع لا يمكنه أن ينصرف إلى التعلم والتثقيف وبطنه خاو. بل علينا أولا أن نشبع جوعه وهو بعد ذلك ينصرف من تلقاء نفسه إلى طلب العلم والمعرفة .

وهذا هو الرأى السائد الآن بين علماء الاجتماع وهو

الرأى الذى تعمل الحكومات على تطبيقه .

وقد ظهر من بعده حكيم صينى آخر يدعى شوشيوس من أهل القرن الثانى عشر للميلاد ، أخذ بدوره يفسر ويشرح هذه الكتب الصينية القديمة التى عكف على دراستها كونفشيوس. وقد انصبت جهوده بصفة خاصة على محاولة إيجاد حل لمشكلة الشر . وكان لكتابات هذا الحكيم وتوجيهاته أثر كبير فى المذهب الكونفشيوسى حتى ذهب البعض إلى أن الأجدر أن يسمى باسم المذهب الشوشيوسى نسبة إليه .

وتعاقبت على مذهب كونفشيوس أحداث خطيرة كانت أحياناً تضيق من أنفاسه حتى يكاد يختنق وأحياناً ترفعه إلى المكانة الأولى. فقد ظهر فى الصين ما بين عامى ٢٤٥ و ٢٠٩ قبل الميلاد طاغية جبار ألقى الرعب فى قلوب الناس أجمعين ، وعمد هذا الطاغية ويدعى « شى هوانج تى » إلى القضاء على جميع الأمراء ورجال الإقطاع ، ثم قام بعد ذلك بتوحيد الصين فى دولة واحدة تحت زعامته . وقد استعمل العنف والقسوة للوصول إلى هذا الغرض الذى كان يهدف إليه كونفشيوس فى واقع الأمر .

وقد رأى « شى هوانج تى » أن المنازعات والمناقشات بين

المدارس المختلفة التى كانت قائمة فى الصين فى ذلك الوقت هى السبب فى ذلك الانقسام والتفكك والقلق السائد فى جميع أرجاء البلاد، لذلك أصدر فى عام ٢١٣ ق . م أمراً بإحراق جميع الكتب الصينية مع استثناء ما كان منها فى حوزة أسرة تسين . وقد رفض أربعمائة وستون أستاذاً من أساتذة هذه المدارس تسليم ما لديهم من الكتب فكان نصيبهم الموت حرقاً . ثم كان التحريق بعد ذلك جزاء من يقبض عليه وفى حوزته بعض هذه الكتب المحرم تداولها، كما كان يحكم عليه بالأشغال الشاقة فى بناء سور الصين العظيم .

وقد اعترت شى هوانج تى هذا رغبة جامحة فى إقامة المبانى والعمائر فكان أن شيد الكثير من المنشآت الصينية المشهورة ومن بينها حصن أوفانج — كنج . وكانت ساحة هذا الحصن الرئيسية تتسع لعشرة آلاف نفس . ويقال إن هذا الطاغية كان يخشى على حياته من اعتداء المعتدين لذلك عمد إلى مغنطة باب هذا الحصن بحيث إذا عبره شخص مسلح انجذب إلى الباب بشدة وافتضح أمره ، غير أن هذا الحذر لم يحل دون قتله . وبعد أن زال هذا الطاغية من الوجود اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة هان . وفى عهدهم انتعشت الصين

وازدهرت ، إذ أخذ هؤلاء الأباطرة يناصرون كل ما من شأنه توطيد الأمن والسلام فى البلاد وإحياء تقاليدها وشعائرها القديمة . وكان فى طليعة الهيئات التى نالت تأييد هؤلاء الأباطرة وتشجيعهم المدرسة التى أنشأها كونفشيوس فى مقاطعة لو .

ازدهر مذهب كونفشيوس فى عهد هذه الأسرة الحاكمة ، ففى عام ١٩٤ قبل الميلاد زار أول إمبراطور من هذه الأسرة قبر كونفشيوس فى « شوفو » وفى عام ٧٢ للميلاد كرمت هذه الأسرة اثنين وسبعين من كبار أتباع كونفشيوس ومريديه . وفى عام ٢٦٧ صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفشيوس أربع مرات فى كل عام . وقام أهل بلدة كونفشيوس ببناء معبد تمجيداً لذكراه . وفى عام ٥٥٥ صدر مرسوم يقضى بإقامة معبد لكونفشيوس فى المدن الكبرى من كل ولاية من الولايات .

وفى عام ٦٦٥ خلع على كونفشيوس لقب « أنبل الأساتذة » ثم لقب « ملك » فى عام ٧٣٩ ، ثم خلع عليه عام ١٠١٣ لقب « أقدس القديسين » .

وكان أباطرة بيت مانشو ينحنون أمام تمثاله إجلالا واحتراماً . وقد أطلقوا عليه عام ١٦٥٧ اسم « أحكم الأساتذة الأقدمين » . وأصبح مذهبه ذخراً يعتز به الشعب الصينى

بأكمله ، كما أصبح كونفشيوس فى نظرهم راعياً لطبقة رجال الأدب ورجال الدولة .

شخصية كونفشيوس وسجاياه

لقد كان لهذا الرجل المحافظ اليائس من الأثر فى حياة أهل الصين ما لم يكن يتوقعه فى حياته . إن الظروف لم تمكن هذا الحكيم من تشييد البناءالذى وضع بيديه أركانه الرئيسية . ولو قدر له أن يستعرض الأحداث التى مرت به فى حياته لقال يقيناً « لو كانت الأشياء جميعاً تحتاج إلى زمن حتى تطيب وتنضج فما أطول الزمن اللازم لتكوين أمة عظيمة » .

لقد وُقد هذا الرجل من صلب سنديانة صينية صلبة ، وكان همه الوحيد تنظيم الشئون الإنسانية وشئون الأسرة والدولة ، ويؤثر عنه أنه لام أحد تلاميذه يوماً لأنه رآه يشغل باله بالتفكير فى الموت قائلا له :

« إذا كنت لا تعرف الحياة فماذا تعرف عن الموت ؟ » .

لقد كان يبدو هذا الرجل فى صورة تبعث على الاحترام والتبجيل . فهو ذو شخصية لطيفة اختار لنفسه مهنة المهذب والناصح للملوك والأمراء . .

وكان كونفشيوس فى بلاط الملوك مثالا كاملا لما يجب

أن يكون عليه رجل البلاط من حيث مراعاة قواعد «البروتوكول» إلى أقصى حدود المراعاة ، والعناية بهندامه وزينته عناية تتفق ومن يكون فى حضرة الملوك الصيد والأمراء . لقد كان كونفشيوس يدرك تماماً أن السماء قد وهبَت عدداً من الناس المقدرة على تدبير أمور الحكم ، فواجب والحال هذه على هؤلاء النفر من الناس أن يضعوا كفاياتهم فى هذه الناحية تحت تصرف حكامهم .

وكان كونفشيوس فى علاقته مع الناس فى حياته اليومية متواضعاً متحفظاً وكان مع ذلك يثق فى نفسه تمام الثقة ويعتقد فى رسالته تمام الاعتقاد حتى فى أيام محنته وبؤسه . ويؤثر عنه أنه قال فى إحدى المناسبات التى تعرضت فيها حياته للخطر : « إن السماء قد حبتنى بحكمة « ون وانج » القديمة ومن ثم لا يستطيع بشر أن يمسنى بسوء » . وقال فى مناسبة أخرى :

« إذا انتشر رأى من الآراء فذلك لأن السماء أرادت ذلك »

ويقصد كونفشيوس من كلمة السماء ما نقصده نحن اليوم من كلمة العناية الإلهية . ولذلك كان كونفشيوس يتوقع لمذهبه الذيوع والانتشار لأنه كان يرى فى نفسه أنه مبعوث العناية الإلهية .

وكثيراً ما يقال. إن كونفشيوس لم يأت بشيء جديد، ولكن الواقع أنه صنع الكثير فى سبيل تعليم أهل الصين وتهذيبهم . فهو قد تناول الكتب الصينية القديمة المقدسة بالتنقيح والتهذيب وبث فيها روحاً جديداً حتى غدت شيئاً له طلاوة الشيء الجديد فأقبل الناس على قراءتها والانتفاع بما جاء فيها . وكان كونفشيوس فى الوقت ذاته رجلا عملياً لا يهتم إلا بالواقع وكان دائم السعى إلى إحياء كل مأثور من العادات والتقاليد الصينية القديمة . وكان كونفشيوس يحترم الملوك والأمراء ولكنه كان فى الوقت ذاته لا يحجم عن انتقاد فعالهم وتصرفاتهم .

وكانت أفعال الناس وطرق معيشتهم محل عنايته واهتمامه، وهو لم يكن يهتم فى قليل أو كثير بالأشخاص الذين تجرى أعمالهم على غير النسق المألوف، كما كان لا يهتم بالظواهر الخارقة للعادة . ونذكر بهذه المناسبة أيضاً أنه كان ينظر بازدراء إلى الشئون العسكرية ويرى أنها فى المرتبة الثانية .

لقد أحس كونفشيوس بالفوضى والفساد يدبان فى أوصال الأمة الصينية ، فأرادَ أن يفعل شيئاً يعيد به السلام والاستقرار إلى البلاد، لذلك كرس جهوده هو وتلاميذه للوصول إلى هذه الغاية المنشودة . كان كونفشيوس يعيش العيشة العملية التى ينادى بها. لذلك كانت كل كلمة يتفوه بها يحيلها إلى عمل من

الأعمال. وكان فى الوقت نفسه يحب أن يكون عمل المرء منسجماً مع الوسط الذى يعيش فيه .

هذا الحكيم الإنسانى المتزن المتفانى فى أداء واجبه كان مرحاً فى حياته المنزلية . لقد كان يحب الموسيقى ويطرب للشعر الصينى القديم . وكان يعيش مع تلاميذه ومريديه فى جو عائلى كبير ، فإذا ما اخترمت المنية واحداً منهم بكاه بكاءً مرا وكأنه فقد أعز أبنائه إليه. ولعل أجمل ما نختم به هذا الفصل أن نذكر (فى الصفحات التالية) بعض أقوال كونفشيوس وحكمه مستقاة من أهم كتبه :

الرجل المتفوق

أليس من المبهج أن يداوم الإنسان على طلب العلم ويثابر على ذلك ؟ أليس من المفرح أن يكون للإنسان أصدقاء يفدون عليه من جهات نائية ؟ إذا لم يكن المعلم رزيناً متزناً لا يحترمه أحد فلا تكون دروسه راسخة وطيدة .

اجعل الأمانة والإخلاص مبادئك الأولى .

لا تتخذ أصدقاء غير أكفاء لك .

إذا كانت لك أخطاء فلا تخش التخلى عنها .

إن الرجل المتفوق هو الذى يعمل قبل أن يتكلم ثم يتكلم بعد ذلك وفقاً لأفعاله .

الرجل المتفوق حر التفكير وليس متعصباً ، أما الرجل الوضيع فمتعصب غير حر الفكر .

إن التعلم دون إعمال فكر مجهود ضائع ، والتفكير دون تعلم أمر خطير .

قد يكون هناك أناس يعملون دون معرفة السبب الذى

من أجله يعملون ، إنى لا أحب أن أفعل ذلك . استمع كثيراً وانتق ما هو حسن ثم اتبعه ؛ وانظر كثيراً واختزن ما تراه فى مخيلتك ، ذلك هو الأسلوب الثانى فى طلب العلم والمعرفة.

هل الفضيلة شيء بعيد المنال ؟ إنى أرغب أن أكون فاضلا ، وهاهى ذى الفضيلة فى متناول اليد .

الرجل الكامل الفضيلة من طبعه الحذر والتمهل فى حديثه ، لأنه إذا شعر بصعوبة العمل فهل أمامه من شيء آخر غير التمهل فى القول ؟

إن الرجل المتفوق لا يعرف القلق أو الخوف لأنه منزه عن الخطأ ، ومن ثم فليس من شيء يقلق باله ولا من شيء يخاف منه ويخشاه .

من السهل القيام بخدمة الرجل المتفوق ولكن من الصعب إرضاؤه ، لأنك إذا حاولت إرضاءه بأية وسيلة لا تتمشى والحق فهو لا يرضى ، ولكنه عندما يستخدم الناس إنما يستخدمهم وفقاً لكفاياتهم الخاصة .

ومن الصعب خدمة الرجل الوضيع ولكن من السهولة إرضاؤه ، لأنك إذا حاولت إرضاءه وإن كان ذلك بوسيلة لا تتمشى مع الحق فإنه يرضى . ولكنه عندما يستخدم

الناس فهو يرغب منهم أن يكونوا على حد سواء بالنسبة لكل شيء.

الحكيم يجد بهجته فى المياه ، والفاضل يجدها فى التلال والمرتفعات ، والحكيم نشيط بطبعه والفاضل هادىء رزين .

الدولة والحكومة

إن الرجل الذى يمارس الحكم مستعيناً بفضله وعدله يمكن مقارنته بالنجم القطبى يحتفظ بمكانه بينما تدور حوله بقية النجوم الأخرى .

إن خطة السماء فى تدبير شئون الإنسانية تجرى على الوجه التالى :

إن الذين أوتوا العلم قبل غيرهم عليهم تعليم هؤلاء الذين يتأخرون عنهم فى تحصيل العلم . وإن هؤلاء الذين يدركون قبل غيرهم المبادىء والأسس عليهم تعليم هؤلاء الأبطأ منهم فهما لهذه المبادىء والأسس . وإنى واحد من أبناء السماء الذين فهموا هذه المبادىء قبل غيرهم ، فعلىّ إذاً تلقينها الناس ، فإذا لم أفعل هذا فمن ذا الذى يقوم بذلك ؟

سأل تسى ــ تشانج الحكيم كونفشيوس قائلا : « بأية طريقة يستطيع الرجل الذى يلى الحكم أن يتصرف كى يسوس الحكومة كما يجب ؟ » فأجابه كونفشيوس : « عليه

تمجيد عظائم الأمور الخمسة وأن يبتعد عن قبائح الأمور الأربعة وبذلك يسوس الحكومة كما يجب ». فسأله تسى — تشانج وما هى عظائم الأمور الخمسة » ؟ فأجابه « عندما يكون الحاكم جواداً من غير إسراف، وعند ما يكل الأعمال إلى الشعب دون أن يتذمر ؛ وعندما يجد فى طلب ما يرغب فيه دون أن يكون جشعاً، وعندما يؤيد قضية جليلة دون أن يعتريه الكبرياء، وعندما يكون مهيباً دون أن يكون عنيفاً شرساً ».

ثم قال له سى — تشانج : « وما هو المقصود من قبائح الأمور الأربعة » ؟ فأجابه كونفشيوس : — « أن تقتل الناس دون أن تكون قد علمتهم فهذا يسمى قسوة ، وأن تطلب منهم أقصى نتاج عمل من الأعمال دون أن تنذرهم بذلك فهذا يسمى عسفاً وجوراً ، وأن تصدر أوامر ليست لها صفة العجلة فإذا ما أزف الوقت تصر عليها بقسوة فهذا يسمى إساءة ومضرة ، وأخيراً إذا كافأتهم أو دفعت أجور عملهم بالشح والتقتير فهذا عمل الموظف العادى دون الحاكم » .

قال كونفشوس : — « من المحال على المرء أن يكون متفوقا دون التسليم بشرائع السماء » .

« ومن المحال أن تتوطد الأخلاق دون مراعاة قواعد الحشمة والأدب » .

« يسعى الرجل المتفوق إلى تكميل الصفات الحميدة فى الناس ولا يسعى إلى تكميل صفاتهم القبيحة ، أما الرجل الوضيع فيصنع العكس »

« إذا حكمت فمعنى ذلك أنك تصلح وتقوم ، فإذا سست الناس بالعدل والاستقامة فمن ذا الذى يجسر على ألاّ يكون مستقيما ؟

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة (قصص وأساطير من الهند)

تمتاز بلاد الهند بجبال تناطح السحاب ، وبأنهار أطلقوا عليها صفة التقديس ، كما تمتاز بحضارة عريقة تمتد إلى شباب الزمن ، وبديانات مختلفة كان أهمها البرهمية ثم البوذية .

وعلى جنبات تلك الحضارة والديانات نبتت أزاهير ناضرة من القصص والأساطير نقدم منها إلى الشباب العربى هذه المجموعة الفريدة .

تحتوى هذه المجموعة على ست قصص مزينة باللوحات الملونة :

١ ــ اليواقيت الأربع
٢ ــ حرب أبناء الأعمام
٣ ــ البراهمة الأربعة
٤ ــ آلهة الهند
٥ ــ أكرم الأمراء
٦ ــ حياة بوذا

ثمن النسخة من كل كتاب ١٣ قرشاً